الفصل الثاني

﴿ الاسلام فى زمن الفتح ومدة حكم العرب ﴾

استعصاء بلاد العرب على الاسلام — القديس (اوغستان)
ومعاقبة أهل البدع — انتشار الاسلام وملاينته فى الشرق —
اعتناق الاسلام بمصر فى زمن بنى امية — الاسلام في
الاندلس — اضطهاد قرطبة — تعذيب (فلورا)
العذراء — المضطهدون فى مراكش — نتائج
ملاينة الدين الاسلامى

قال القديس (بولص) يطلب اليهود معجزات ليصدقوا واليونان ادلة ليؤمنوا وأما العرب فانهم آمنوا بغير معجزات ولا أدلة اذ النبي كان يقول لجلسائه على الدوام انه آدمى مثلهم وانه مرسل اليهم وانه مجرد عن كل سلطان فى المعجزات (قل انما انا بشر مثلكم يوحى الىّ انما الهكم اله واحد) (قل لا املك لنفسى نفعاً ولا ضراً الا ماشاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون)

وأما البراهين فنحن نعلم مقدار بعد عقله عن التخيلات الذهنية كالامة التى بعث فيها الا اننا رأينا الاسلام في وقعة بدر سنة ٦٢٤ ميلادية وليس له من الانصار الا ثلثمائة واربعة عشر نفراً فلم يمض عليه قرن واحد

حتى اجتاز جبال (الألب) وتوسط البلاد الفرنساوية وقد اسلمت الشام والعجم ومصر وبلاد الغرب من مراكش الى الجزائر الى تونس الى طرابلس . نعم قد سبق هذا الانتشار العظيم عناء شديد واضطراب فى العمل كثير واضطهاد للناس كبير شأن كل ديانة عامة فى مبدأ ظهورها ولكن الاسلام لم يلبث ان تغلب على اكبر العثرات فهد الصعاب حتى صار لا يعرف حاجزاً ولا ممانعاً

وما أشبه الدين فى انتشاره بامتداد السائلات الطبيعية فهو نتيجة مؤثرين مؤثر داخلى يسمى المقاوم ومؤثر خارجى وهو المحرك والاول خفي لا يظهر اثره وان كان هو الذى يلتقط جميع الحرارة الواصلة الى الجسم فعمله الوحيد التغلب على مقاومة العناصر فاذا انحلت جاء المؤثر الخارجى فنشأ عنه مع اختلاف يسير تمدد الجسم العظيم الذى يسمى تبخراً وقد احتاج الاسلام فى الانتشار الى التغلب على قوة العوائد والتقاليد التى وجدها وهو مانع يصادف كل دين جديد الا انه كان قوياً للغاية عند العرب لتمسكهم بعاداتهم واعجابهم برسوم قبائلهم العريقة القديمة وكان من الصعب جداً ان يعتنقوا دينا يرى اباءهم غير مطهرين ومن الموانع التى قوت العرب فى استعصائهم على الاسلام ما اشتمل عليه من مبدإ قهر النفوس وتذليلها للواحد المعبود فالقول بالمساواة بين الناس طراً امامه كان ثقيلا على آذان العرب مخالفاً لتقاليدهم الاولية حتى يدينوا اليه بغير عناء ولذلك فان الاسلام سنة ٦٣٢ ميلادية ايام وفاة النبى لم يكد يبلغ حدود جزيرة العرب الا انه كان بين المسلمين الاولين رجال من العظماء اعترف بفضلهم الاب (بروغلى)

حيث قال (ان الذين آمنوا بمحمد كانوا قوما صادقين ذوى دراية وذكاء منهم ابو بكر وعمر رجلان توليا زمام مملكة فسيحة الارجاء فاحسنا سياستها وكانا ذوى ثبات وعدل وقناعة وفضل وشدة عزيمة وكانا ارفع قدراً وابعد مرمى من القياصرة والحكام الذين حاربوهما) ومن الغريب ان الدين الاسلامى لم يلق فى طريقه من المقاومات الا ما قابله بها العرب الوثنيون فانهم كما قدمنا كانوا مدفوعين الى المقاومة بسبب تمسكهم بعوائدهم وشعائرهم القديمة وحبهم لحريتهم واستقلالهم فكان جميع تلك القبائل المنثورة وهم رحل فى الوديان غيورون على اطلاقهم في الفلوات لا يعرفون من الحكم الا سوق الماشية الى المرعى ومحاربة بعضهم فى كل آن وتكوين أمة واحدة منهم أكبر عقبة قامت فى وجه النبى ولولا قوة الدين الجديد لما بقيت تلك الوحدة زمناً طويلا على انها لم تدم الا وقتاً وعادت بعد ذلك الى التفرق والانقسام غير ان القبائل بعد تفرق وحدتها لا تزال متمسكة بدينها الجديد وصار الاسم العربى ذا المقام الاول بين الأسماء فى جميع أطراف المسكونة وصار كل ينتسب الى عائلة من عائلات الجزيرة خصوصاً عائلة قريش ذات المجد الباذخ والشرف الرفيع وهذا هو السبب فى اطلاق اسم العرب فى التاريخ على أمور كثيرة فقالوا عائلة كذا عربية وأمة كذا عربية وتمدن كذا عربى مع انه لا جامعة بينها وبين بلاد العرب سوى الاسلام

ولم تتوحد قبائل العرب لتصير أمة واحدة من غير اراقة الدماء بل قامت حروب داخلية اذكتها الاحقاد القديمة وجلبت على المتحاربين خسائر جلى وكان النبى (صلى الله عليه وسلم) مهتماً كثيراً بفتح العرب

كلها لظهوره بينهم و كون بلاد العرب صارت مطلع شمس الاسلام حيث ترسل اشعة نورها فى جميع الاقطار وكان أشياعه يسمعونه على الدوام يكرر عليهم هذا النداء (لايكون دينان فى العرب أبداً) ولذلك نزلت فى القبائل المعاندة تلك الآيات التى تنذر بغضب الله (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) (ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين ذلك بانهم كرهوا ما أنزل الله فاحبط أعمالهم (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) وقد نظر بعضهم الى هذه الآيات وما يماثلها فاتهموا النبي بالتعصب أفما كان يجب عليه أن يحارب بقوة السلاح المعاندين من الوثنيين ليبيد تلك الديانة الى الابد من بلاد العرب كما انها هى التى اخنت على مذهب التوحيد مذهب الخليل قبل الاسلام وان يجعل بين المؤمنين وبين عبادة الاصنام حداً فلا يرجعوا اليها (قاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله)

ولقد فرق جميع مفسرى القرآن على الدوام بين الوثنيين وبقية الكافرين فالمجوسى على قول خليل هو الوثنى الذى لايعترف المسلمون بديانته كما يعترفون بدين اليهود والنصارى وليس له مقام فى دارهم وان أدى الجزية لانها غير مقبولة منه ويجب عليه أن يهاجر فى ثلاثة أيام من يوم تكليفه بذلك أو ان يعتنق الاسلام أوان يموت على اننا نرى فى الكتاب الخامس من الزبور أمراً بالتشدد فى معاملة الوثنيين قال (اذا أدخلك ربك فى ارض

لتملكها وقد أبادا مما كثيرة من قبلك فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ولا تعطهم عهداً ولا تاخذنك عليهم شفقة أبداً) . كذلك أمر الله اسرائيل باستئصال سكان المدائن التى اختص بها قومه ولم يأمر بالاشفاق الاعلى المدن البعيدة التى لا تصل عدواهم اليه ثم ان شدة اعتقاد النبي وقوة ايمانه بان القرآن أنزل اليه ليخرج الناس من الظلمات الى النور سببان يؤيدانه فى استعمال الحرب فكان مثل اشعيا يخدم ربه بابادة الوثنيين كذلك اعتناق بعض القبائل للاسلام فى مبدإ ظهوره كان اوجب عداوات شتى اشتعلت بسببها نيران الفتن فى بلاد العرب اجمعها وما كان ينبغى للنبي حباً فى السلام ان يترك الباطل يعلو على كلمة الحق المبين

كتب القديس اوغستان وعصره ليس ببعيد عنا كتابه الشهير الى الكونت (بونيفاس) يشير عليه فيه باستعمال القوة لردع اهل البدع من المسيحيين وردهم الى الديانة النصرانية (راجع ترجمة هذا الخطاب فى الملحق الثانى) وقد جاء فيه تمثيل المنشقين ببغال تعض وترفس قوما يعالجونها مما اصابها وهم ملجئون الى تعذيبها ليتمكنوا من تضميد جراحها وان الطفل الصغير لا تتيسر تربيته بغير السياط والايلام الجسمانى فالاضطهاد الذى يستعمل ضد الاشرار لردهم الى طريق الخير أكبر خير يصنع معهم نعم لا يشك احد فى ان حمل الناس على طاعة الله بالحسنى وبالتعليم اولى من الجائهم اليها بالارهاب والتعذيب الا ان الناس رجلان فمنهم من يسهل اقناعه بالمناظرة فيرجع الى الحق ومنهم الغبي المكابر ولقد دلتنا التجارب ولا تزال ترينا ان الناس من ينفع الخوف فى تعليمهم او فى استعمال ما تعلموه على الوجه

الذى ينبغي ثم أخذ الكاتب يشرح للمكتوب اليه ان الاضطهاد عدل وظلم فهو عدل من الاتقياء ضد الاشقياء، وظلم من هؤلاء على الاولين قال (تضطهد الكنيسة من تحب ويضطهد الاشرار من يكرهون فهى تريد جمع الشمل وهم يفرقون وهى تجرى خلف الهدى وهم للضلال يسارعون) ولقد كان يتعذر ان يلاقى الناس تساهلا ولينا من الاسلام فى مبدإ ظهوره لما فيه من المخالفة لثورة الدين فى نفس النبي واصحابه الاولين ولكن بعد ان دانت العرب وآمنت بالقرآن واستنارت القلوب بنور الدين الحنيف برز المسلمون فى ثوب جديد امام اهل الارض قاطبة هو المسالمة وحرية الافكار فى المعاملات وتتابعت آيات القرآن تأمر بالمحاسبة بعد تلك الآيات التى كانت تنذر القبائل المارقة (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي) (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما

هكذا كانت تعاليم النبي بعد اسلام العرب وقد اقتفى اثره فيها الخلفاء من بعده وذلك يحملنا على القول كما قال (روبنسون) ان شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم وهذه المحبة التى دفعت العرب فى طريق الفتح وهو سبب لا حرج فيه فنشر القرآن جناحية خلف جيوشه المظفرة اذ اغاروا على الشام وساروا سير الصواعق الى افريقيا الشمالية من البحر الاحمر الى المحيط الاطلانطيق ولم يتركوا اثراً للعسف فى طريقهم الا ما كان لابد منه فى كل حرب وقتال فلم يقتلوا امة ابت الاسلام ولو

قارنا بين اغارة المتبربرين وبين اغارة المسلمين التى تلتها لوجدنا الثانية اخف ضرراً واكثر ليناً فكلما التقى المسلمون بامة خيروها بين واحد من ثلاث الاسلام او الجزية او تحكيم الحرب حتى تضع اوزارها هكذا كانت الاوامر التى زود بها ابو بكر الصديق خالد ابن الوليد لما انفذه الى الشام وقد سرت هذه الاوامر الا فى الوثنيين لما تقدم بيانه من انهم كانوا يعاملون بغير معاملة الامم الاخرى ومما يحسن هنا ان نقابل بين اوامر ابى بكر (رضى الله عنه) وبين تعاليم الكتاب الخامس من الزبور فيما يتعلق بحصار المدائن ومعاملة الكلدانيين قال (اذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الامان فان قبلته فقد سلم كل من فيها وان ابت وبادأتك بالعدوان فشدد الحصار عليها ومتى وفقك الله للظفر بها فاحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام)

ولم يلق المسلمون من نصارى آسيا وافريقيا الا مقاومة خفيفة اخلدوا بعدها الى الدين الجديد ولقد مضى زمن طويل وهم ينسبون سقوط تلك الكنائس فى حوزة الاسلام مع ما كان لها من المكانة الرفيعة قبله مثل كنائس (قرطاجنة) الى ما استعمله المسلمون معهم من العنف والتعصب وعدم المحاسنة وذهب معاصرو هذا الفتح من المؤلفين الى تفسيره بما يلائم احوال زمنهم فنسبوا سرعة تقدم الاسلام الى ما استحقه المسيحيون من غضب الله عليهم فاراد ان يعاقبهم على زيغهم واراد قوم من المتعبدين ان يؤيدوا هذه الحجة وان يحرضوا الناس على التوبة فبالغوا فى ذلك الزيغ وشددوا النكير على النصارى وصاروا يوعزون بان الجيوش الاسلامية انما

هى الآلة التى اراد الله ان ينتقم منهم بواسطتها ذلك لان الفتح الاسلامى وتفرق الكنائس المسيحية فى آسيا وافريقيا حادثتان متلازمتان فلا لوم على المؤرخين فى الجمع بينهما حتى ان الفاتحين انفسهم ما كانوا يفرقون بين اعتناق الاسلام و لرضوخ للقوة الظافرة ولكن الخطأ عند الجميع هو تعليقهم الثانية على الاولى مع انه لايوجد بينهما الا تفاعل من بعض الوجوه فكما ان الفتح الاسلامى حمل النصارى على ترك دينهم كذلك تفرق ذات بينهم سهل الفتح للمسلمين

انكر (آريوس) ألوهية عيسى فكان بذلك طليعة لنبي المسلمين اذ فتح الطريق الى الاسلام لان الاسلام ما كان يقول عن المسيح الا انه آخر الرسل قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) وبعد ان ظهر لم يقم أحد بطعن يذكر ضد مذهب التثليث بل جرى الناس عليه بالاجماع اثنى عشر قرناً متتالية حتى صار عاماً ولم يعد الباحثون غير المتدينين يجرأون على نبذه من بين الديانات القائلة بالتوحيد لما يلزمه من تعدد ذات الاله ولذلك كان من خوارق العادات قيام أسقف الاسكندرية آريوس فى وجه الدين المسيحى حتى ارتجت له اركان ذلك الدين واستولى اليأس على قلوب المسيحيين المخلصين وصار القديس (جيروم) يتنهد الصعداء قائلا لقد اندهش الكون من صيرورة الناس كفاراً لا يعتقدون بتجسم الاب فى الابن) ومع ان المسيحيين اتباع (نيس) تمكنوا من التغلب على هذا المذهب الجديد فقد نتج من هذا الخلاف انشقاق عظيم فى كنائس افريقيا وآسيا وظهر الاسلام يخطو خطاه الواسعة فلم ير فيه أولئك المتنافسون ديناً جديداً

بل قبلوه مذهباً مسيحياً

ولانتشار الاسلام ورضوخ الامم لسلطانه سبب آخر فى هاتين القارتين آسيا وافريقيا الشمالية هو استبداد القسطنطينية فانه كان قد بلغ منتهى العسف ووصل جور الحكام الى درجة ازهقت النفوس فلما جاء الاسلام تراموا اليه هرباً من المضائب الفادحة واستلاب الاموال لانه كلما اسلمت عشيرة رفع عنها أثقال المغارم ورد اليها مالها المسلوب ومن لم يقبل شريعة القرآن عومل هذه المعاملة عينها بلا قيد غير اداء الجزية وكانت شيئاً يسيراً (العشر) أو جزءاً من اثنى عشر وبذلك آمنوا فى ظل لدين الجديد ولم يتعرض اليهم أحد من دعاته فى دينهم ولم يفرق بين أصلى فى المسيحية ومنشق عنها وهذه المعاملة هى التى جاء بها القرآن وجرى عليها الخلفاء الاولون فكان اليهود والمسيحيون يسمون ذميين وهم ثلاثة ذميون ومستأمنون ومحاربون فالاول منهم من سكن بلاد المسلمين ودان لسلطة الحاكم الاسلامى وأدى الجزية اليه يعبد الله على دينه ولا يكره على الاسلام ويخضع لقوانين النظام والامن العام ويرجع الى دينه فى الاحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث الا اذا اشترك معه مسلم فالدين الاسلامى ومن الخطأ الفاحش استعمال لفظة الذمى فى معنى الخسة والجبانة لأن معناها الحقيق (المؤمَّن بتشديد الميم الثانية وفتحها)

والمستأمن هو الغريب العابر السبيل وهو يعيش تحت حماية المعاهدات والقوانين الدولية العامة وأما المحارب فهو من كان فى بلاد تجاهر بالعداوة للاسلام أو لم تتعاقد مع المسلمين على مايضمن لاهلها الامان فى ديارهم فان

وجد فى بلد مسلم وشهر السلاح فى وجهها خيّر بين الاسلام أو الاعداء وما عدا ذلك فهو آمن ان أدى الجزية قال على رضى الله عنه (ما كانت الجزية الا ليتساوى دم الذمى بدم المسلم وماله بماله) وكان من ورآء هذه المسالمة ولين المعاملة تقدم الاسلام حثيثاً وسهولة استعلاء فاتحيه لما سبقه من ظلم أكاسرة المملكة الشرقية التى بغضها الناس وسئموا الحياة منها

هذا واذا انتقلنا من الفتح الاول للاسلام الى استقرار حكومته استقراراً منظما رأيناه اكثر محاسنة وانعم ملمساً بين مسيحى الشرق على الاطلاق فما عارض العرب أبداً شعائر الدين المسيحى بل بقيت رومة نفسها حرة فى المراسلات مع الاساقفة الذين مازالوا يرعون الأمة الخالية وفى سنة ١٠٥٣ ميلادية كتب البابا ليون التاسع الى مسيحى افريقيا يوصيهم باعتبار أسقف (قرطاجنة) مطراناً عاما بينهم وكان الوئام مستحكما بين المسلمين والمسيحيين حتى ان (غريغوريوس) السابع كتب الى المسيحيين يلومهم على المحاكمة مع أسقفهم امام المسلمين وكان ذلك فى ٥ سبتمبر سنة ١٠٧٣ ومع هـذه المسألة العظيمة من جانب المنتصر الى المغلوب ضعفت الديانة النصرانية جداً ثم زالت بالمرة من شمال افريقيا . على ان الاسلام لم يكن له عمال مخصوصون يقومون بالدعوة اليه وتعليم مباديه كما فى الديانة المسيحية ولو انه كان له أناس قوامون لسهل علينا اشكال معرفة السبب فى تقدمه القريب فانا شاهـدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام فى حروبه ركباً من القسس والرهبان ليباشروا فتح الضمائر والقلوب بعد أن يكون هو قد باشر فتح المدائن والاقاليم بجيوشه التى كان يصلي بها الامم حربا تجعل

الولدان شيبا ولكنا لا نعلم الاسلام (مجمعاً دينياً) ولا رسلا وأحباراً ورآء الجيوش ولا رهبنة بعد الفتح فلم يكره احد عليه بالسيف ولا باللسان بل دخل القلوب عن شوق واختيار وكان نتيجة ما أودع فى القرآن من مواهب التأثير والاخذ بالالباب نعم قد اعتنق الاسلام قوم مشوا ورآء منافعهم ولكنهم قليلون بجانب من اسلم عن اعتقاد صادق وميل صحيح وكان ذلك من اسهل الامور لبساطة الدين وكفاية النطق بكلمة التوحيد ليصير قائلها من المسلمين . ومع ذلك فلم نر بعد استقرار الحكومة الاسلامية على محور النظام عشائر من المسيحيين تركوا دينهم جملة واحدة بل انه صار من اللازم ان يثبت الاسلام لمن اراده على يد القاضى ويحرر بذلك محضر يذكر فيه ان المسيحى اعتنق الاسلام عن اعتقاد تام غير خائف ولا مكره اذ لا يجوز ان يكره احد على تغيير دينه (راجع المحضر المذكور فى الملحق الثالث) (١)

وقد كثر دخول المسيحيين فى الدين الاسلامى ايام حكم الامويين حتى ان الخلفاء لم ينظروا اليه بعين الرضا لما كان ينشأ عنه من الضرر ببيت المال فقد نزلت ضرائب مصر مدة خلافة معاوية الى النصف عما كانت عليه فى خلافة عثمان بسبب دخول عدد عديد من الاقباط فى الاسلام ومن أجل ذلك ضيق الخلفاء باب الدخول فى الدين الجديد فلم يعفو الراغبين فيه من آداء الجزية يدلنا عليه ما كتبه حيان الى عمر الثانى وهو عمر بن عبد العزيز اتقى الخلفاء الامويين حيث قال له فى

---

(١) هذا ليس بواجب شرعا ولعل المؤلف اخذ ما يقول من سريان العادة به فى هذه الازمان

خطابه (اذا دام الحال فى مصر على ماهو فيه الآن أصبح مسيحيو هذه البلاد كلهم مسلمين وخسرت الخلافة حينئذ متجبيه منهم من الاموال)

فلما قرأ الخليفة هذا الكتاب انفذ لساعته الى حيان رسولا وقال له (اذا لقيت حيانا فاضربه ثلاثين سوطاً على أم رأسه عقابا له على كتابه وقل له ان يرفع الجزية عن كل رجل يعتنق الاسلام فانى ارى سعادتى فى ان يصبح المسيحيون أجمعون من المسلمين لان الله اوسل نبيه ليبلغ رسالته لا ليجمع الضرائب والاموال) وليس فى خوف المسلمين على نفاد النقود من بيت المال مايوجب استغرابنا لان الضرائب فى الجزائر تصيب مسلميها فهى اكثر جداً من التى تطلب من المسيحيين فلو تنصر مسلمو الجزائر ومنحوا جميع الامتيازات المخولة للمسيحيين لاصبحنا فى حيرة شديدة من قلة المال

ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين فى بلاد الاندلس حتى صاروا فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم (فيزيجو) ويقول (دوزى) ان هذا الفتح لم يكن مضراً بالاندلس وما حصل من الاضطراب والهرج بعده لم يلبث ان زال باستقرار الحكومة المطلقة الاسلامية فى تلك البلاد وقد ابقي المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء وكثير منهم تولى قيادة الجيوش مثل (سيد) وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الاندلسية الى المسلمين وحصل بينهم زواج كثير وكم من اندلسى بقى على دينه ولكن

اعجبته طلاوة التمدن العربي فتعلم اللغة وآدابها وصار القسس يلومونهم على ترك الحان الكنيسة والتعلق باشعار الظافرين وكانت حرية الاديان بالغة منتهاها . لذلك لما اضطهدت اوروبا المسوبين لجأ والى خلفاء الاندلس في (قرطبة) لكن لما دخل الملك (كارلوس) في سرقسطه امر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين ونحن نعلم ان المسيحيين ايام الحروب الصليبية مادخلوا بلادا الا واعملوا السيف في يهودها ومسلميها وذلك يؤيد ان اليهود انما وجدوا مجيراً وملجأ في الاسلام فان كانت لهم بانية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم لا الى ما يوجد بين الاثنين من الجامعة في الاصل والجنس واللغة والدين كما ادعاه (افيديكور شايكين)

ولم يطلب المسلمون من مسيحي الاندلس الا ما فرضوه على غيرهم وهو الجزية ويحسن بي ان اذكر هنا نادرة رواها أحد مؤرخي العرب لكونها تدلنا على ارائهم في الجزية وما كان بين المسلمين والنصارى من العلائق والروابط (كان لفقيه من فقهاء قرطبة جار مسيحي يسلم عليه كلما لاقاه في طريقه بقوله اطال الله عمرك فسمعه ذات يوم بعض المتشددين في التمسك بالقرآن ولاموه على دعائه لجاره النصراني بمثل هذا الدعاء فلم يحفل الفقيه بملامهم واجابهم بسكينة انني بقولي الى نصراني اطال الله بقاك اريد ان يفسح له في الاجل ليؤدي الجزية زمنا طويلا والظاهر ان الفقيه كان مصافيا للمسيحي وانه اراد التخلص من عتب اللائمين فاسكتهم بهذا الجواب . وقصص العرب والاندلسيين محشوة بمثل هذه النادرة مما

يدل على حصول المودة الاكيدة بين الفريقين . فما هو مبالغ فيه اذن تعظيم الضغينة التى كانت بين الامتين اما رأينا الخلفاء انفسهم فى الشام والاندلس يتخذون لهم نصحاء من المسيحيين ويرفعونهم الى اعلى الدرجات وكان المسلمون يشكون من ذلك علنا ويرددون هذه الحكمة البديهية التى نزلت على النبى (صلى الله عليه وسلم) ياايها الذين امنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لايهدى القوم الظالمين)

وذهب العلماء الى تحريم مصافاة المسيحيين (١) وقالوا بعدم جواز ولايتهم فى المناصب الا ان اوامر الدين لاتقوى على الضرورة فتولى المسيحيين مناصب فى الاسلام كان ضربة لازب عقب الفتح لعدم تعود العرب على سياسة الامم فكانت ادارة ممالكهم من أصعب الامور لديهم ووجب لذلك استخدام المسيحيين لا ان أولئك الموظفين كانوا يشوهون بوجودهم فى المناصب وحدة الاسلام وقد سماهم المحدثون من العرب (قذى حقيقياً فى أعين الاسلام) وكان بغض المسلمين اليهم مسبباً فى الغالب من جورهم فى الاحكام لامن مخالفتهم فى الدين

وليس من غرضى ان آتى على تاريخ المسيحيين فى الممالك الاسلامية أيام القرون الوسطى ولكن من البديهي انه لابد من ان يكون حصل بين الفريقين تمد واعتساف كما يحصل المد والجزر فى البحر الا ان رأى المؤرخ

---

(١) الآية لا تدل الا على منع الولاية وليس فى الشريعة مايحرم المصافاة كما سبق له بيانه .

لا يأتيه من جمع الحوادث مجردة عن ظروفها بل من نظره في أسباب تلك الحوادث والوقوف على كيفية ظهورها وأنا قد قرأت التاريخ وكان رأيي بعد ذلك ان معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع في المعاشرة عن الغلظة وعلى حسن مسايرة ولطف مجاملة وهو احساس لم يشاهد في غير المسلمين اذ ذاك خصوصاً وان الشفقة والحنان كانا عنوان الضعف عند الاوروباويين وهذه حقيقة لا أرى وجها للطعن فيها على وجه العموم . على انه لا يسعني ان أترك ذكر حادث عظيم الشأن ذلك ان الكنيسة الاندلسية تخيلت سنة ٨٥١ انها على شفا جرف الاضطهاد من المسلمين فبينما عامة المسيحيين في قرطبة يقيمون شعائر دينهم مطمئنين ولا يشكون من حكومة العرب كان القليل منهم يتميز من الغيظ ضدهم بما هيجه القسس والرهبان في صدورهم من الغل وما ملأوا به ضمائرهم من الحقد والبغضاء وقد امتاز من بينهم (ايلوغوا) وكان قساً في قرطبة في عنفوان شبيبته حتى انه احتاج في كسر ثورة نفسه الى قهرها بالصوم والسهر ووهب نفسه للموت حباً في المسيح فانساه هذا الميل كل شهوة دنيوية وكان يجتمع دائما بمبغضي الاسلام ويخطب فيهم حتى أهاج ضمائرهم لقوة بيانه وهاموا جميعا يطلبون الموت فداء لدينهم

الاندلسي حاد التخيل سهل الاعتقاد بالاوهام وبينما القاضي في مجلسه بمدينة قرطبة اذ دخل عليه راهب يقال له اسحاق وكان كاتباً لاحد أمراء العرب وعلى وجهه سمات التهيج الذهني وعيناه حائرتان فلما صار بين يديه قال حضرت لاعتنق الاسلام فامره القاضي أن ينطق بالشهادتين فاندفع يسب النبي والدين سباً شنيعا فظنه القاضي سكران أو مختل الشعور وتردد

في الحكم باعدامه الا ان اسحاق لم يرجع من أول مرة بل استمر على شنائه حتى اضطر القاضى أن يحكم عليه بالموت على مابه من الحلم طوعا لاشارة الشرع اذ يقضى بالاعدام على من يسب الرسول وأعدم اسحاق فى ٥ يونيه سنة ٨٥١ وهو يعترف بالمسيح ويسب محمداً ومن ذلك الحين انفتح الباب أمام كل شخص يظن نفسه معذبا وأراد كل واحد أن يذهب الى المحكمة ليسب محمداً ويموت فتقاطروا اليها أفواجا أفواجا حتى تعب الحجاب من ردهم وكان القاضى يصم الاذن كى لا يحكم عليهم بالاعدام وعقلاء المسلمين مشفقون على هؤلاء المساكين آسفون على ان دينهم يأمرهم باعدامهم ويظنونهم من المجانين وقد بلغ عدد الذين حكم عليهم بالقتل أحد عشر فى شهرين واتخذ (ايلوغو) ذلك دليلا على انتصاره لانه هو الذى أوجد خيال الاضطهاد في الاذهان واستحق بذلك ان يخلد ذكره فى الكنائس ومع هذا كان عقلاء المسيحيين يرون أولئك المتعصبين قوماً أرادوا الانتحار ويجاهرون بالتنديد على أعمالهم وكان (ايلوغو) وصاحبه (القارو) يرمونهم بالخيانة لعدم اقدامهم على سب النبي ودينه ثم عظم الهياج فى كنائس الاندلس واستولى القلق على حاشية الخليفة فامر الامير عبد الرحمن الثانى بجمع رؤساء القسس وطلب منهم الفتوى فيما هو حاصل من المسيحيين فلم يتعرضوا للماضى وقالوا بالمنع فى المستقبل وتقرر أن لا يحضر مسيحى امام القاضى الا اذ دعى اليه فانقادوا آسفين ولكن ثورة الخواطر استمرت فى الكنائس الى سنة ٨٥٩ وانتهى هذا الدور الذى سماه (ايلوغو) زمن الاضطهاد فى قرطبة وتبعه فى ذلك غيره من المؤرخين ومن تخلى عن الاغراض لا يرى فى ذلك الا ان

قوماً خاطروا بانفسهم فذهبت ضحية الاوهام ولكنه لم يحصل من المسلمين اضطهاد مطلقاً . ودليلنا على ذلك كتاب (ايلوغو) نفسه وكتب من جاء من بعده فانها كلها تنطق بان المسلمين لم يبدأوا بالشر بل ثورة المسيحيين وتعديهم هما اللذان كانا السبب فيما أصابهم ومن أراد ان يطالع تلك الكتب فجزاؤه من تلاوتها ان يقف على حكاية حدى العذارى التى كانت تسمى (فلورا)

ولدت فلورا من زوجين مختلفين ديناً وجنساً وتيتمت صغيرة فربتها أمها على الدين المسيحى وكان لها أخ شديد الاسلام فشكاها الى القاضى وعذرت تعذيراً شديداً بالسياط حتى تقطعت بشرة رأسها من الخلف وكانت ذات حسن وجمال (باهرين) كما ان أبويها كانا من جنسين عظيمين واتفق ان جراحها زادت فى حسنها واهتم بها اشياع (ايلوغو) وصاروا يذهبون لمشاهدتها فى المحكمة ويعجبون بشجاعتها فى تمسكها بدينها وقد ذهب « ايلوغو » نفسه لزيارتها فكشفت له عن جراح رأسها وشاهدها بغير تلك الشعور التى كانت تزينها فتأثر التقى الصالح (ايلوغو) لمرآها واشتغل قلبه بحبها غير انه حب طاهر كما كانت البنت بكراً ثم وضع يده على الجروح وود لو تمكن من شفائها بين شفتيه ولكنه لم يتمكن فانصرف عنها مكتئباً فكوراً وكانت فلورا تعيش فى عزلة عن نظر المسلمين ولا تخرج من مخبئها الا الى الكنيسة وهنالك تعرفت باحدى العذارى واسمها مريم وكان لها أخ حكم عليه بالموت وهى تريد أن تفعل كما فعل وكانت هذه المعرفة سبباً فى ان كل واحدة منهما اهاجت ضمير اختها حتى وصلتا الى درجة احبتا فيها الموت فذهبتا مسرورتين الى المحكمة لتشتما محمداً امام

القاضى الا ان القاضى أشفق عليهما اشبابهما وجمالهما واجل اعدامهما ثم أمر لهما بالسجن . ولما كان الثبات من اصعب الفضائل احتمالا سيما على الطباع الشديده التأثر ومضى على البنتين شهر طويل وهما فى السجن تهددان بالفحش والفجور ضعفت منهما العزائم بعد أن طلبتا الموت بقلب ثابت ولكن (ايلوغو) ما كان لينسى تلك التى القت فى قلبه شعوراً يقرب من العشق والهيام يوم ان كشفت له عن رأسها واتفق انه سجن أيضاً لمخالفته ماقررة القسس لدى الخليفة فسهل عليه أن يراها وكان لذلك أثر شديد فى قلبه لكن الدين كان له جماحا شديداً وأخذ يشجع البنت على الثبات والتعلق باهداب المسيح حتى أعدها ثانية الى تحمل الآلام . ألا ان قلبه مع ما هو عليه من التأثر بالدين كان يشعر بامر دنيوى واحساس غريب ذلك ان (ايلوغو) كان يحزن كثيراً لمفارقة فلورا ولكنه ضاعف فى حرمان نفسه بالصوم والجوع واراد الله ان لا يطيل عليه هذا العذاب ونفذ الموت فى البنتين يوم ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥٣ واطلق من بعدهما صراح (ايلوغو) فعين قساً فى (توليد) ومات مقضياً عليه فى ١١ مارث سنة ٨٥٩

ولم تنته هذه الثورة من اسبانيا الا فى آخر القرن التاسع ومع ذلك حصلت ثورة دينية تشابه ماتقدم بعد ثلاثة اجيال فى (اشبيليا) ذلك ان القديس (فرنسوى داسيز) كان ارسل بعض اخوة من أشياعه لنشر الدين المسيحي فى بلاد المغرب وكان أول عمل أتاه اولئك المرسلون ان دخلوا جامعاً فى اشبيليا والمسلمون يصلون وجعلوا ينشرون الانجيل ويعظون الناس بالدين المسيحى فطردوا ولكنهم ذهبوا الى سراى الملك وجعلوا

يطعنون على القرآن فحكم عليهم بالسجن فى منارة فاستعلوها وصاروا يدعون الناس الى عبادة لدين المسيحى فلم ير السلطان بداً من نفيهم فارسلهم الى مراكش فلم يزدهم ذلك الا تشدداً فيما كانوا يفعلون ولم تنفع فيهم شفاعة دون بيترو مع علو مكانته عند الامير المراكشى فقتلوا فى ١٦ ينايرسنة ١٢٢٠

ولقد أطلنا القول فى مسالمة المسلمين عند انتشار دينهم فى الغرب لان الضد ثابت فى أذهان المسيحيين ولا يزال مستحكما من نفوسهم الى يومنا هذا ما اظهره المؤرخون ومن طافوا بلاد الشرق من مخالفته للواقع قال ميشو فى تاريخ الحروب الصليبية لما استولى عمر على مدينة اورشليم لم يفعل بالمسيحيين ضرراً مطلقاً ولكن لما استولى المسيحيون على تلك المدينة قتلوا المسلمين ولم يشفقوا واحرقوا اليهود حرقاً وقال الخبر ميشون (مما يؤسف عليه جداً بالنسبة الى المسيحيين أن تأتيهم المسالمة وحسن المعاملة من المسلمين مع ان المسالمة هى أكبر الخيرات بين بعض الامم وبعضها) وقد انتشر الاسلام شرقى بلاد العرب فى جميع القارة الاسيوية بين القرن الثانى عشر والرابع عشر ولم ينشأ عنه عسف ولا حروب حتى ان حكام المسلمين انفسهم احترموا مدينة (بيناريس) لاعتبارها عند الهنديين مدينة مقدسة مع ان اهلها كانوا من البراهمة تقريباً . وبالجملة فان الاسلام مادخل بلداً الا وصار ذا المقام الاول بين الديانات المسيحية من غير ان يتعرض لمحوها

وعلى هذا يتحقق ان الدين الاسلامى لم ينتشر بالعنف والقوة بل الاقرب للصواب ان يقال ان كثرة مسالمة المسلمين ولين جانبهم كانا سبباً فى سقوط المملكه العربية ولقد يعجب المؤرخون من سرعة انتشار

الاسلام حتى بلغ نهر (اللوار) فى فرنسا ويتساءلون ما الذى كان يصير اليه حال أوروبا اذا لم يقف (كارلوس مارتل) فى وجه المسلمين فى سهول (بواتييه) ونحن نرى ان هذا السؤال موضوع وضعاً متلوباً والاولى ان يقال ماذا كان يصير اليه حال أوروبا المسيحية لو كان المسلمون متعصبين لان انكسارهم فى بواتييه ليس سبباً كبيرا يكفى لان يعوق الاسلام عن الانتشار كما اصاب في الاشارة اليه موسيو (مرسييه) وخسارة مرة فى الحرب لاتنتج عادة مثل هذه النتيجة الكبرى فعادة الحرب ان تكون سجالا وكم من كسرة شفعت بنصر عظيم وقد عال موسيو (مرسييه) انسحاب العرب نهائيا من أوروبا بعد تلك الحرب بالثورة التى قامت بين سكان المغرب لانها منعت عن المسلمين المدد الذى كان يأتيهم من تلك الاقطار وكانت العمدة في حروبهم على عساكرها وهو سبب قوى فى الواقع لكننا لا ننسى ان نضيف اليه تطرف المسلمين فى المحاسنة فانه سهل العصيان ومهد لبعض عائلات المغرب المستقلة طريق الخروج عن الجامعة فى بلاد الاندلس وبلاد المغرب وانتهى الامر مع تلك المحاسنة الى انحلال عناصر المملكة العربية ومن المظنون ان المسلمين لو عاملوا الاندلسيين مثل مافعل المسيحيون بالامم الساكسونية و(الواندية) لاخلدت الى الاسلام واستقرت عليه لانها مع تمتعها بحريه دينها المسيحى كانت كثيرة الانشقاق والاحزاب

ومالنا ولهذه الظنون والتخمينات وأمامنا أمر واحد ينبغى الوقوف عنده وهو ان ديانة القرآن تمكنت من قلوب جميع الامم اليهوديه والمسيحية

والوثنيه فى افريقيا الشماليه وفى قسم عظيم من اسيا حتى انه وجد فى بلاد الاندلس من المسيحيين المتنورين من تركوا دينهم حبا فى الاسلام كل هذا بغير اكراه الا ما كان من لوازم الحروب وسيادة حكومة الفاتحين ومن دون ان يكون للاسلام دعاة وقوام مخصوصون وهو مما يقنعنا بان في الاسلام جاذبية وقوة انتشار سنبحث فيما بعد عن سببها الحقيق لانه لا يزال ينتشر حتى الآن . وقبل ان نبحث عن تلك الاسباب ننبه القارئ الى ان لا يعد من جملتها كما ذهب البعض اليه ان الدين الاسلامي ينتشر لكونه ديناً ماديا اكثر مما هو دين أدبي فهو يبيح تعدد الزوجات ويبشر أصحابه بالتنعم في اللذائذ الشهوية في جنات بالغ الوصاف في نعوتها . وهذا هو الذى اتخذه أعداء هذا الدين مطعنا عليه زمناطويلا كذلك سنأتى بشئ فى القضاء والقدر لان منهم من رآه سببا مهما لانتشار الاسلام وعلة الشجاعة التى امتاز بها المسلم فجعلته لا يعبأ بالموت فى مواقف الحروب